قصيدة القبر الجماعي

ولدانِ تحت الشمس
أُغنيتان للنَّعناع
خيطٌ لا نهائيٌ
وطائرةُ الورقْ ...

ولدان من ورقٍ
وطائرةٌ على أفق نهائيٍّ
وسفحٌ في مغيب الشمس
رفرف واحترقْ

ولدان تحت الردم
خيط من صَدَى النعناع
خيطٌ من دمٍ
يمتدُّ بين الله والأطفال
بين الموتِ نوماً ، والأرقْ
ولدان تحت الثلج
أغنيتان في سنّ الحليب
ووردةٌ ناريّةٌ
تكتظُّ غامضةً
وتُشعلُ في ظلام الروح
ناراً للقوافلْ
يا أيّها الأحياء والأموات
هل لي بينكم مأوىً
فإنِّي قادمٌ للتوِّ من أنقاض بابلْ
يا أيّها الأموات والأحياءُ
هل لي عندكم زادٌ
فإنِّي عائد لخرابِ بابلْ

حَجّاً إلى القبر الجماعيّ الحبيب
هناكَ لي ولدان
تحتَ الشمس
(من ورق)
وتحت الردم
(من ورقٍ)
وتحت الثلج
(من ورقٍ)
ولي ولدان في القبر الجماعيِّ الحبيب
طفلان من موتٍ ونعناعٍ
أحنُّ إليهما .. وأحنُّ .
ينتظران عودتيَ القريبةَ
بالدفاتر والزبيب
ويحنُّ لي موتٌ قريب
آمنتُ
بين اللاتِ والعزَّى ،
مكانٌ شاغرٌ لله

بين الله والقتلى ،
مكانٌ شاغرٌ لي
ثمَّ يُقبل مُؤمنٌ بعدي
ليَشغَل لحظة في الصمت
يَسكُنَ بُرهةً في الموت
منذا أنت ؟
يا من يفتدي جسدي
ومنذا أنت ؟
يا من أمتطي ساقيه
من منفى الى منفى
ومن حلم إلى جرحٍ
ومن موت إلى بَعْثٍ
إلى موت الى موتٍ
إلى ولدين في القبر الجماعيِّ
(آعذُراني !
يا من أشمُّ أريجَ موتكما على بُعدٍ
وأرسُفُ بالزمانِ وبالمكانِ ..

آمنتُ ،
لكنَّ الطريقَ إلى الأحبةِ كافرٌ
والشوق في زمن القذائف كافرٌ
والورد في زمن المجاعة كافرٌ
... لا تعذلاني !)
في البدءِ كان الصمت
أُطلق صيحتي
وَيَرفُّ روحي فوقَ غَمْرٍ راكدٍ
لا بأسَ ،
هذا أحْسَنُ .
ويطوف وجهي في هلام العالَم المُختلِّ
يولدُ من ضلوعي موطنُ
لا بأس ،
هذا أحسنُ .

وتهيجُ قُطعان من الكهّان ،
حول خطيئتي - كينونتي

يتكاثر التجّارُ والمتبطِّلون ،
على رُكام مدينتي
وتطنُّ أسرابٌ من الشعراء والخطباء
حول قصيدتي
لا بأسَ
يُبعَثُ من رمادي ذات يومٍ مُؤمنُ
ونقول : هذا أحسنُ !

بيضاء ؟ لا
سوداء ؟ لا
خضراء ؟ لا
حمراء ؟ لا
دفنوكِ بالألوان
وانكفأوا بلونِ الماءِ
أعْفَى المستحيل المُمْكنُ
فتفجري
وتفجّري

وتفجّري
هُزّي ضريحَ الصَّمتِ والنسيان
وانطلقي على الناسوت واللاهوت
يا مرثيَّتي
لا .. لن يتمَّ الخَلْقُ
تلك مشيئةُ الشهداء
أوصَوْني ،
بأن يُعطى اليتامى فُرصةً أُخرى
وأن ترثَ الأراملُ نُطفةً أُخرى
وأن يتداول الأحياءُ
في المستقبل المنشود ..
لا لا لن يتمَّ الخَلْق
تلك حكايةٌ مرفوضةٌ من أصلها
لا لن تمرَّ خرافة الكهّان ،
هُم هُم سَمَّموا بئري وسُنبلتي
ولي ولدان
في الموتى

ولي جسدان
في الأحياء
لي نعناعةُ الذكرى
وحُلمي المُزمنُ ..

كل الدروب تمرّ في جسدي
وتنطفىء الدروبْ
كل الجيوش تحطُّ في بلدي
وفي بلدي تغيبْ
كل الزهور تفوح من ولدي
ولي ولدان
في القبر الجماعيِّ الحبيب ..
وأنا قتيل في الحياة
قتيل أَوْباش الشعوب
أنا قتيل في الحياة
قتيل أَشلاءِ القبائلْ
وآثنان أَهلُ الأرض :
مقتولٌ وقاتلْ !

قَلْبٌ عَلى نَصْلَيْن واجفْ
بين القوارض والكواسر والجوارح والزواحفْ
جِيَفٌ تفوحُ من المعاطفْ
دُول
رجالاتُ
وظائفْ
أسرى وجلّادون
أسيادٌ . تنابلةٌ . وصائفْ
قتلى ،
وثوّارٌ بلاغيّون
يا حزنَ المنابر والمواقفْ
لم يبقَ للمصباحِ غير دمي
وللمفتاح غير يدي
وداعاً
يا أُمَّةً
يا مصاحفْ !
أليوم أُعلنُ في الشعوب رسالَةَ الأحياء

أُعلن في الشعوب نبوَّةَ الشّهداء
أعلن في الشعوب خلافتي ..
منذا يبايعني ؟
ـ الضمائر والعواطف
منذا يبايعني ؟
ـ الجداول والسنابل
والنسائم والعواصف
منذا يبايعني ؟
ـ الأغاني والمراثي
والشرايين الرواعف
منذا يبايعني ؟
ـ دمٌ من جبهة التاريخ نازف
ولدان في القبر الجماعيّ الحبيبْ
ولدان من حَمَأ وجُلْنَارٍ
غُلامٌ للتراب
وطفلةٌ للماء
صوتي الريح

جسمي النار
هل تلد العناصرْ
أسلافَهَا ؟
هل يُستعاد غَدُ الأوائل
مفعَمَ الوَقْتَيْن
في يوم الأواخر ؟
هل تُفتدى ليلى بصاحِبِها ؟
أزيحوا هذه الكأس المقيتة عن فمي
لَيْلايَ عيدُ الموت والميلاد
مُصْطَفَقُ الغُموض مع الوضوحِ
هِيَ أُمُّ أطفالي
وزهرةُ حسرتي
ونزيف روحي
مَهْدي .. وشاهدةُ الضريحِ ..

من عتمة الزيتون تطلبني ،
وآتيها ،

ثقيل الشوقِ والخطوات
تنشجُ : (كان لي ولدان من حُب ونَعْناعٍ !)
وآخذها كسيرَ القلب
تصرُخ كان لي ولدان
رُدَّهُما !)
أُحاول أن أُهدِّيءَ رَوْعها
بحكاية خرقاء
عن بطل إلهيٍّ
يجيء على جواد ناصعٍ
من حوله آصطفَّ الملائكُ ،
ذلكَ البطلُ الالهيُّ الخصيبْ
لا بُدَّ يولدُها
فتنساني
وبردَ العُقْم
والقبرَ الجماعيَّ الحبيب .
لكنَّها تبكي وتصرخُ :
(لا أريدُ سِواك .. رُدَّهما !)

أَلوبُ ، أَلوبُ
من عارٍ ومن وَجَعٍ أَلوبْ
وأصيح .. لكن لا سميع ولا مُجيب :
أَوْرَثتَني وطناً ؟
أَجِبني يا أبي ، أين الوطنْ ؟
لم يبقَ إلا صخرةٌ بيضاء
في سعَةِ الكَفَنْ
أين الوطن ؟
لمن الوطن ؟
كيفَ الوطن ؟

وأَصيحُ .. لكنْ لا سميعَ ولا مجيبْ
ليلايَ نائمةٌ على الأعشاب
لِصْقَ القبر
نائمةٌ كميتةٍ
وميِّتةٌ كنائمةٍ
أيوقظُها أَندِلاعي بالتفجُّع وٱلنَّحيب

يا ايها القبر الجماعيّ الحبيب ؛!
جَمَلٌ أنا
جَمَلٌ خُرافيٌّ
يَخبُّ على سنام الأرض
(لبرودوي حُنكَتُهُ
يَشمُّ البزنس المُجدي
يهيئني
لدورٍ ما يدرُّ الربحَ في هوليوود
وشانزيليزيه
يُجرِّبُ رقصة الكانكان
فوقَ سناميَ السِّحريّ ..)
هل أصبحت أحدَبَ نوتردام ؟
لمن غرامُ القدس ؟
منذا عندليب الشمس ؟
مِرْسالُ الشروقِ إلى الغروب
إلى الشروق إلى الغروب ؟
يا أيها القبر الجماعيُّ الحبيب ...

منذا ؟
ولي ولدان من موتٍ ونعناعٍ
ولي جسدان من نارٍ وبارودٍ

ولي ،
ليلى يدنِّس طُهرَها الأغراب
لو ناديت لانثال الكثيبُ على الكثيب
لـ..ي..لـ..ى..ى..
ولكن ، لا سميعَ ولا مُجيب

ليلى ،
ولي شَبَحٌ جُنونيٌ يَهيمُ على الدروب
عَمَّرتُ دهراً
عاد بي الشيْخُ العجوزُ إلى الجَنين
لم أحصِ عُمري بالسنين
أحصيت عمري بالحروب .

في حربِ ميلادي قُتِلتُ
في حرب مدرستي أسرتُ

في حرب إخصابي
أهنتُ
في حرب إنجابي طُعنتُ
في حرب مَوْتي ،
أُعلنُ الميلاد ،
أُعلن حربيَ الأخرى
على شبحٍ من النيترون والكرتون
أُعلن حربيَ الأخرى
على شيخٍ بُخاريٍّ
وفرسانٍ من الإسفنج
أُعلن ثورةَ الأطفال والنَّعْناع

لا جدوى بنفخ الوهمِ في الأبواق
ليلى جُثَّة خضراء
في القبر الجماعيّ الحبيب
قَمَرٌ من الحنَّاء راحَتُها
وعيناها على قلبي مُشَرَّعتَان

لا . لن أُغمِضَ العينين
منذا مُبصري من دون عينيها
وهذا الشرق ، أعمى القلبِ والعينين
منذا مُبصرُ الولدين
(پيكاديللي نهارٌ قاحلٌ
لا ضوء في بْرودوي
شانزيليزيه
لا قَمَري ولا شَجري
ولا . لا . لن أموتْ
على مزالِقِ شرفةٍ في نوتردام)
أَجَل سنامي واضحٌ
كالحُزن في الطِّفَل الكئيبْ
ما خَيروني في الحياة
وإنني يا أيها القبرُ الجماعيُّ الحبيب
أَختار لي موتي الجماعيَّ الحبيب
أَختارُ ،
ميلادي الجماعيَّ الحبيب ...

(الرامة ١٨/٤/١٩٨٣)